ماهية الذات الإلهية

سؤال: يقولون: ما ماهية الذات الإلهية ﷻ؟

الجواب: إن الله سبحانه ليس كمثله شيء؛ والحقيقة أن مخلوقًا يعيش في عالم محدود كهذا لا شك أن فكره ونظره وحدسه محدودٌ أيضًا.

فنسبة ما يبصره الإنسان في هذا العالم ١,٠٠٠,٠٠٠/٥ تقريبًا، وكذلك نسبة ما يسمعه، فمثلًا: لا يستطيع أن يسمع صوتًا اهتزازه ٤٠ ترددًا في الثانية، ولا صوتًا بلغ تردده الآلاف، فحاسة السمع عند الإنسان محدودة، لا تسمع إلّا نسبة ضئيلة في المليون، ومجال علمه واطلاعه محدود جدًّا أيضًا، فكيف يستطيع هذا الإنسان المحدود في علمه وبصره وسمعه أن يتجرأ ويسأل: لماذا لا يُرى الله؟ وما هي حقيقته؟ كفى بطرح مثل هذا السؤال جرأةً وتجاوزًا للحدّ، وكذا محاولة إسناد الكمية والكيفية لله تعالى -حاشاه- ومحاولة التفكير في ذاته.

فمن أنت أيها الإنسان وماذا تعلم حتى تتكلّف إدراك ذات الله تعالى؟ إنّ الله تعالى منزه عن الكيف والكم، وهو أجلّ من أن تحيط به مقاييسُك القاصرة، فإن جُبتَ عوالم أخرى في تريليون سنة ضوئيّة ثم أحطتَ بتلك العوالم لم يكن ما شاهدتَه شيئًا أمام سعة وجود الله.

وعندما نعجز علميًّا ولو عن معرفة قارة "أنتاركتيكا"، فكيف يمكن أن نحيط علمًا بذات الله ﷻ خالق الكون ومدبّره؟ حاشا لله، فالله تعالى مقدس ومنزه عن الكيف والكم لأنه هو الله، لا تدركه التصورات والتخيلات وهو اللطيف الخبير.

obeikandl.com

يقـول علمـاء الـكلام: "كل ما خطر ببالك فالله تعالـى بخلاف ذلك"؛ أما المتصوفة فيقولون: "كلّ ما خطر ببالك فهو وراء وراء وراء ذلك، كيف والحُجُب تحيط بك كأنك في فانوس".

يقـول ديـكارت: "الإنسـان محـدود من جميـع جوانبـه، والمحدود لا يسـتطيـع التفكيـر فـي المطلق"، فوجـود الله تعالى مطلـق غير محدود، فـلا يسـتطيـع الإنسـان القاصـر المحدود أن يحيـط به، ويحدثنـا الأديب الألمانـي "جوته" عن هذه الحقيقة فيقول: "يذكرونك بألف اسـم واسـم، أيها الظاهر الباطن! ولو ذكرتك بآلاف الأسـماء لا بألف اسم فحسب لما ذكرتك حق ذكرك، فأنت أعلى من أن يَصِفك الواصفون".

يرى المفكرون أن الله موجود ولكن وجوده لا يدرَك، فيسـتحيل على الأذهان أن تحيط به، فالعين لا تستطيـع رؤيته والأذن لا تستطيـع سماعه، فالزم غِرزَ الأنبياء في إيمانك به سبحانه.

كيـف يمكننـا أن نـدرك الله تعالى وهـو خالق الوجود وأصـل العلم، فوجودنـا ومضـة من نور وُجوده، وعلمنا نفحة مـن علمه الإلهي المحيط بـكل شـيء؛ أجـل، هناك طريـق لمعرفة الله تعالـى وبلوغ مرتبـة العرفان، إلا أن لـه حـدًّا ينتهـي إليـه، ولكـن هـذا الطريـق مغايـر للطريـق المعتاد في معرفة الأشـياء، فمن يحاول معرفة الله بسلوك طريق غير طريق معرفته سبحانه هُم البؤساء ممن لم يستطيعوا التغلب على غرور أنفسهم، وجهلوا معنى المشاهدة القلبية، ولم يتذوقوها؛ فتراهم يقولون: "بحثتُ عن الله فلم أجده"، وهذا ضلال كبير وقول زائف باسم العلم والفلسفة.

الله تعالـى هـو الإله الذي يُرينا وجوده بل وجـوبَ وجوده في الآفاق وفي أنفسـنا أثنـاء معراج الروح والقلب إليه، ويُشـعِرنا بنفسـه في أعماق قلوبنـا وأرواحنـا؛ وهـذا الحـدس الوجداني هو أسـاس جميـع علومنا،

وهـو أقـوى من جميـع علومنـا القاصرة ومن عقولنـا وأفكارنا، ومـع هذا فكثيرًا ما نذهل عن وجودنا وعن هذا الحدس الوجدانيّ، فنضل ونشقى.

الكونُ ألفُ لسان ولسان يذكّرنا بهذا، والقرآن يفعل ذلك بأبلـغ بيان، وكفى برسولنا ﷺ مبلِّغًا لهذه الحقيقة العالية.

روي في الأثر: "**مَا وَسِـعَنِي سَـمَائِي وَلَا أَرْضِي؛ وَلَكِنْ وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ**"(١).

(١) السخاوي: المقاصد الحسنة، ص. ٥٨٩.

obeikandl.com

obeikandl.com

معرفة اللّه

سؤال: هل يمكن معرفة ذات الله وتعريفها؟

الجواب: لا نستطيع معرفة شيء عن الله إلا ما بلغَنا عنه، ولا يمكن للعقل أن يدلي بشيء في هذا، فدوره الاستجابة لإرشاد الوحي في هذا، وهاكم مثالًا يوضح هذا الأمر:

لنفرض أننا جالسون في بيت، وسمعنا الباب يطرق... أجل! الباب يُطرق فعلًا، فتجاوز بعضنا مدلول طرق الباب، وأدلى كلّ برأي مختلف حول هوية من يطرقه؛ وتفكيرنا هذا يسمّى "التصور"، ورأى آخرون أنه لا مجال للتصور هنا، وأن على العقل التصديق بأن هناك شخصًا ما وراء الباب، ويترك للشخص القادم أن يعرف نفسه، وهذا يُسمَّى "التعقل".

وبتطبيق هذا المثال على موضوعنا نقول:

إننا نحاول معرفة الله تعالى بالانتقال من آثاره إلى أسمائه، ومن أسمائه إلى صفاته، ومن صفاته إلى تجليات ذاته؛ أي ننتقل من تجلياته في آثاره إلى تجلياته في أسمائه سائحين في الكون للوصول إلى تجلياته في صفاته، ونتحول من الغيب إلى الشهود؛ وكلما ازدادت أشواق مشاهداتنا تقلبنا في حالات السكر والذهول والغياب عن الوعي، فأحيانًا ننبسط بأنسام الجمال والحنان، وأحيانًا نرتجف خوفًا ومهابة.

إننا لا نستطيع قول أي شيء في الذات الإلهية بمقاييس معارفنا ومعلوماتنا، فعلينا أن نحيل معرفته تعالى إلى الوجدان؛ فللوجدان لسان خاص ولهجة خاصة به، وهو نقطة الْتقاء عالم الغيب بعالم الشهادة.

obeikandl.com

أجل، الله تعالى معلوم بأسمائه، وأسماؤه تدل على صفاته، وله ذاتٌ مقدَّسة لا نعرف كنهها، كما قال أبو بكر الصديق ﷺ: "العجز عن درك الإدراك إدراك"، وهو ﷻ معروف ومعلوم لكن في إطار ما يُعزى إلى النبي ﷺ أكبرِ معرّفٍ وأعظمِ دليل على الله: "سبحانك ما عرفناك حقَّ معرفتك"[٢].

وبتعريف القرآن الكريم لأفعال الله ﷻ يتبين أنه المعبود المطلق الموصوف بصفات الكمال، وأنّه يمكن لقلوبنا أن ترتقي لمعرفته، لنرى كمال جماله ﷻ.

إذًا نستطيع أن نجدد عهدنا ونقول:

"أيها المعبود المطلق، لا نستطيع معرفتك حق المعرفة، إننا نعلم أنك أقرب إلينا من حبل الوريد وندرك مدى عظمتك وقدرتك على طي السموات جميعًا كطيّ السجل للكتب، ونتلمس النظام الرائع والتناغم البديع الذي وضعته بين عين البعوضة والمجموعة الشمسية، فذلك كله طريقٌ نورانيّ لأرواحنا، لقد تعرفنا عليك بآثارك في مئات الآلاف من خلقك، فتَوحّدْنا بتجلياتك، وظفرنا بالطمأنينة".

والله أعلم بالصواب.

(٢) المناوي: فيض القدير، ٢/٤١٠.

obeikandl.com

وحدة الوجود

سؤال: ما هي "وحدة الوجود" وهل توافق عقيدة أهل السنة؟

الجـواب: الحديث في وحدة الوجود من شـأن المتصوفـة غالبًا، وهي مسـألة "حـال" أو "ذوق" عنـد أهـل التحقيق، لكن جاء مَن ألبسـها لباسًـا فلسفيًّا وفهمها على غير ما هي عليه، وجاء من لم يفرق بينها وبين "وحدة الموجود (الوحدوية/*Monism*)".

ولهذه المسألة شأن مهمّ في تاريخ الفكر الإسلامي، وما زال الخلاف فيهـا بين الإفـراط والتفريـط، إنها مسـألة متعلقة بالذات الإلهية مباشـرة، وأثارت جدلًا واختلافًا كبيرًا، وهذا إما بسبب القصور في التعبير، أو بسبب تطبيقِها على عالم الشـهادة، أو لمشـابهتها لفكرة "بانتَئيزم (*Pantheism*)" التي تصطبـغ بالهوية الفلسفية.

وللتوحيد ثلاث مراتب عند أصحاب مدرسةِ وحدة الوجود:

١- توحيـد الأفعال (إسـناد كل فعل في الكون إلـى الله ﷻ): الأفعال كلها أيًّا كان سببها هي أفعال الله مباشرة، ولا داعي لتحري أي سبب آخر وراءها. ولا داعي للحديث هنا عن مسألة "الخلق والكسب" التي هي من مسائل علم الكلام، والتي ورد ذكرها عند الإجابة عن أسئلة القدر.

ويُسـتدل على هذا بقـول الله ﷻ: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (سُـورَةُ الصَّافَّـاتِ: ٩٦/٣٧)، وقولـه عزَّ مِـن قائل: ﴿**قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**﴾ (سُـورَةُ النِّسَـاءِ: ٧٨/٤) ونحوهما من الآيات القرآنية.

obeikandl.com

٢- توحيد الصفات: الاعتقاد بأن القدرة كلها قدرة الله، والعلم كله هو علم الله، والإرادة جميعها إرادة الله، والقوى بمختلف أنواعها مصدرها قوة الله جلَّ جلاله.

٣- توحيد الذات: ليس هناك إلا وجود واحد، وهو وجود الله، وما سواه مما نشاهد ليس سوى ظهور وتجليات منه على مختلف المراتب.

وكل هذه المراتب قابلة للمناقشة حتى الفروق الطفيفة بين كلمتي "الظهور" و"التجلي"، ولكن موضوعنا هنا توحيد الذات، فسنقتصر عليه. وإذا ما انحصر هذا المفهوم في "الذوق" و"الحال" فلا مجال لنقده أو الاعتراض عليه.

إن إسناد الأشياء والحوادث إلى الله وأسمائه واجبٌ عقلًا ونقيضه محال كما يعرفه أهله، وهذا قريب من مفهوم التوحيد عند أصحاب هذه المدرسة، ووِجهة نظر الصوفية مثله.

ويقسّم الإمام سعد الدين التفتازاني في كتابه "شرح المقاصد" القائلين بوحدة الوجود قسمين، ويعد أحدهما من أهل السنة، وأمرُ هؤلاء لم يكن محل نزاع قط كما ذكرنا.

نعم، إنه يَقْسِمُ القائلين بوحدة الوجود إلى زمرتين: الصوفية والمتصوفة؛ أمّا الصوفية فيعترفون بالكثرة في "الوجود" كما يعترفون بها في "الموجود"[٣]، لكن طالب الحقيقة عندما يصل إلى الله يجد نفسه مستغرقًا في بحر المعرفة، ويشهد فناء ذاته أمام ذات الله، وصفاته أمام صفات الله، ويتلاشى في نظره كل ما سوى الله؛ وعندئذ يَعدّ السالك وجوده ملتقى تجليات الحق، وهذا ما يسمّيه الصوفية "الفناء في التوحيد"؛

(٣) إن "وحدة الوجود" تختلف عن "وحدة الموجود" اصطلاحًا؛ أي إنهما مصطلحان مختلفان، وكذلك الحال في "الكثرة"، تختلف في معناها في "الوجود" عن معناها في "الموجود".

obeikandi.com

وكثيرًا ما ينتج عن اختلاط الأحوال في هذه المرتبة كلام تُشَم منه رائحة "الحلول" و"الاتحاد".

هذا التوحيد عند طائفة من الصوفية هو مقتضى مقام "الجمع"، وهذه مسألة عرفان ثم مسألة ذوق، واعتراف الإنسان في هذا المقام بوجود حقيقي لما سوى الله مخالفٌ لمشاهدته وإحساسه؛ فمن سلّم بوجود الأشياء والأسباب وهو في هذا الحال شعر أنه أشرك بالله ﷻ، وبالعكس إن إنكار الأسباب دون بلوغ هذا المقام وهذا الحالِ رياءٌ وادعاء باطل؛ فمن لم يذق "الجمع" حُرم من المعرفة، ومن لم يذق "الفرق" حُرم من أسرار العبودية، أما الكامل فهو يُقرّ بالجمع في موضعه والفرق في موضعه.

وأما الزمرة الثانية -وهم المتصوفة- فهم القائلون بوحدة الوجود مباشرة، فالوجود عندهم واحد، وهو وجوده سبحانه، أما الكثرة التي تشاهد في الكون فمحض خيال وسراب.

إذًا وحدة الوجود عند الصوفية حالٌ من الأحوال وذوق من الأذواق الروحية، أما عند المتصوفة فنظريّة وفكرة فلسفية؛ ومَن نحا نحوهم من المتكلمين مثل جلال الدين الدواني ليسوا أقلّ عددًا ولا حماسًا في دفاعهم المستميت عنها؛ أما علماء أهل السنة من عصر السلف إلى يومنا هذا فهم متفقون على أنَّ "حقائق الأشياء ثابتة".

يذكر شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في كتابه "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين" أنّ وحدة الوجود مردّها إلى القول بأن وجود الله عين ذاته، لكن المتكلمين يرون أن صفة الوجود زائدة على الذات كسائر الصفات، وواجب الوجود وممكن الوجود في هذا سواء؛ ويرى الإمام الأشعري أن الوجود عين الذات في واجب الوجود

والممكنات، ووافقه الفلاسفة في الواجب لا في الممكن، حيث يرون أنّه ليس للأشياء إلا وجود اعتباري نسبي، والموجود الحقيقيّ هو ذات الله ﷻ؛ لأنّ وجود الله عندهم هو عين ذاته، ولأنّ الوجودَ هو وجوده تعالى.

والسؤال هنا: هل تُعَدّ صفة الوجود وغيرُها من الصفات السبحانية عينَ ذاته تعالى أو غيرهَا؟ مسألةٌ فيها نزاع منذ قرون، لكن اتهام طائفة بينها كثير من علماء الأمة بأنهم وراء اتجاه الناس إلى وحدة الوجود أو وحدة الموجود ينتج عنه تضليلُ هذه الطائفة بمن فيها، وهذه تهمة عظيمة ينوء بها كاهل صاحبها.

يقول جلال الدين الدواني في رسالة "الزوراء" ما يفيد أن وجود الله هو عينُ ذاته، وأنه تعالى الموجود الحقيقي الوحيد، وليس معه موجود حقيقي آخر، وأن الوجود -من حيث إنه وجود- منحصر في وجوده تقدس وتعالى؛ وهذا يعني أن وجود غير الله وجود اعتباري مجازي لا حقيقي، ويذهب الدواني في هذا الكتاب إلى أبعد من ذلك فيقول:

"إن حدوث الشيء لا عن شيء محالٌ، إن الشأن في الحدوث الذاتي أيضًا كذلك، ما أيسره أن تمارس ذلك. فإذًا المعلولُ ليس مُباينًا لذات العلة ولا هو ذاته، بل هو بذاته لذات العلة شأنٌ من شؤونها، وجهٌ من وجوهها، حيثيَّةٌ من حيثياتها... إلى غير ذلك من الاعتبارات اللائقة.

فالمعلولُ إذًا ليس إلا اعتباريًّا محضًا، إن اعتُبر من حيث نسبته إلى العلة وعلى النحو الذي انتسب إليها كان له تحقُّقُه، وإن اعتُبر ذاتًا مستقلًّا كان معدومًا بل ممتنعًا، والثوبُ إذا اعتُبر صورةً في القطن كان موجودًا، وإذا اعتُبر مباينًا للقطن ذاتًا على حياله كان ممتنعًا من تلك الحيثية؛ فاجعل ذلك مقياسًا لجميع الحقائق تعرف قول من قال: الأعيانُ الثابتة ما شمّت رائحةَ الوجود، وإنها لم تَظهر ولا تظهر أبدًا، بل إنما يَظهر رسمُها.

لما كان منتهى سلسلة العلّيّة واحدًا والكلُّ معلولٌ له إما ابتداءً وإما بواسطة فهو الذات الحقيقية، والكلُّ شؤونُه وحيثياتُه ووجوهُه إلى غير ذلك من الاعتبارات اللائقة، فليس في الوجود ذواتٌ متعددة بل ذاتٌ واحدة لها صفاتٌ متكثرة؛ قال الله تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ**﴾ (سُورَةُ الْحَشْرِ: ٢٣/٥٩)"[٤].

ويذهب الشيخ محيي الدين بن عربي إلى أبعد من هذا وذاك، فيقول: هذا العالم المشهود مَظهر وصورة، وليس موجودًا حقيقيًّا، ولا موجودًا له دوام؛ فالله يتجلى دائمًا، والعالم يتجدد باستمرار، فالتجليات تتوالى، والعالم يتردد بهذه التجليات بين العدم والوجود، وإنما لا نرى أي انقطاع في الوجود لسرعة التجليات وتتابعها.

وبمثل هذا قال مولانا جلال الدين الرومي بأسلوب ثريٍّ متلألئ، يقول:

> "ومن نكون نحنُ؟ يا مَن أنت لنا روح الروح، حتى يكون لنا وجود مع وجودك!
>
> نحن عدم، ووجودنا أنت، ذلك أنك وجود مطلق يُبدي الفانيات الزائلات.
>
> ونحن كلنا أُسودٌ لكن أسود العَلَم، يكون هجومها من الريح لحظة بلحظة.
>
> وهجومها ظاهر، لكن الرياح ليست ظاهرة، فلا جعل الله مفقودًا ذلك الذي ليس بظاهر.
>
> وإن رياحنا ووجودنا من عطيتك، ووجودنا بأجمعه من إبداعك.

(٤) جلال الدين الدواني: رسالة الزوراء، ص. ٢-٤.

لقد أظهرتَ للعدم لذة الوجود، وكنتَ قد جعلت العدم عاشقًا لك"(٥).

فمثل هذه الفكرة التي تَعدّ كلَّ التقلبات والتموجات في الكون تجلياتٍ للحقّ ﷻ لا تَنسب صفة الوجود لأي شيء سوى الله؛ فنسبة صفة الوجود لغير الله عندهم مجاز روعيت فيه الصورة؛ أمَّا التنوع والكثرة في الأشياء التي هي تجليات الحق فمردُّهما إلى اختلاف استعدادات مرايا التجليات اختلافًا لا يغير شيئًا في وحدة الوجود.

ويُعبّر الجنيد البغدادي عن هذا المعنى بقوله: "لونُ الماء لونُ إنائه".

الوجود الحقيقي إذًا واحد كالنور تمامًا، والكون كله انعكاس لهذا النور وتَموُّجٌ له، مثل الغيث والبَرَد والثلج صورها مختلفة وحقيقتها صور لشيء واحد، فالأشياء والحوادث الجارية جريان السيل صورها مختلفة، وحقيقتها جلوات لحقيقة واحدة.

هذه الآراء والأقوال تكشف أن المتصوفة الذين فهموا وبحثوا مسألة "وحدة الوجود" على أنها مسألة فلسفية زلّت ألسنتهم بكلمات تتضمن أو توهم معنى الحلول والاتحاد، بينما عقيدة الصوفية الأوائل وأقوالهم في مسألة التوحيد خالصة صافية من كل هذه الإيهامات، ولا تدلّ على أكثر من "وحدة الشهود".

نعم، لم يكن بوسع المتصوفة التخلص من هذا الأمر؛ فهي عندهم مسألة علمية فلسفية، ويستدلون على معتقداتهم بآيات وأحاديث، منها هذه الآيات الكريمات:

١- ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/١٧).

(٥) مولانا جلال الدين الرومي: المثنوي، [ترجمة: إبراهيم الدسوقي شتا]، ١/٨٧-٨٨.

٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ٤٨/١٠).

٣- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (سُورَةُ ق: ٥٠/١٦).

ومن الأحاديث:

الحديث القدسي:

"إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: "يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؛ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؛ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي"[٦].

والحديث القدسي:

"مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ؛ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"[٧].

ويمكن سرد ما يستدلون به من النصوص، وفي هذا القدر كفاية.

(٦) صحيح مسلم، البر، ٤٣.

(٧) صحيح البخاري، الرقاق، ٣٨.

وقد أفاض كبار رجال التصوف في بحث هذه المسألة، فلا داعي -في جواب سؤال- أن نستطرد في تاريخ وحدة الوجود، وليس هذا موضع بسط الكلام فيه، فنكتفي بمثالين فقط:

ففي الآيتين الأوليين ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ الصواب في تفسير مثل هذه الآيات حملُها على المحكمات وتفسيرُها تفسيرًا منطقيًّا لا يورث تعارضًا بين مدلول آيات القرآن الحكيم، وهذا ما فعله المفسرون العظام حتى اليوم.

ولا يختلف كثيرًا إن كان المرادُ من هاتين الآيتين هو نسبة الأفعال إلى الله تعالى أيًّا كان فاعلها، أو عَدّها من معجزات النبوة، أو أن الله تعالى أضاف فعلَ أشرفِ عبادِه ﷺ إلى ذاته ﷻ لإظهار شرفه أو صواب فعله ﷺ أو لتأييده...

نعم، تأويل الآيتين بوجه من مثل هذه الوجوه سائغ، ولا شيء فيهما يشير إلى وحدة الوجود، بل تشيران إلى ثبوت حقيقة الأشياء؛ لأنهما تبينان أن المؤمن غير الكافر، وأن هناك قاتلًا وآخر مقتولًا، وأن هناك مع المتكلم مخاطبًا وغائبًا، فهذا كله يغاير بعضه بعضًا، ولا تُستنبط وحدة للوجود من مثل هذه الآيات إلا بتأويلات متكلفة.

أما الآية الأخيرة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فيستحيل قطعًا أن تُستنبط منها وحدة الوجود.

وأما الأحاديث التي يستدلون بها فلا تشير إلى وحدة الوجود، بل تنص على الكثرة في الوجود بشكل جلي.

ومـن عقيـدة الحلول والاتحاد التي يرفضهـا الجميـع حتى المتصوفة القولُ بوجود العبد مـع وجود الرب قبل أن يحظى العبد بالقرب من ربه، ثم ادعاءُ الوحدة بعد ذلك.

بـل إن مـا يقوله أهـل الله يخالف مقصـد هؤلاء، فكلامهم يشـير إلى "الاثنينية"، وإن بدا أنه يؤيد وحدة الوجود:

> "حينًا تكون شمسًا وحينًا تصير بحرًا، حينًا تصير جبل "قاف" وحينًا تصير "العنقاء".
>
> ولا أنـت هـذا في حد ذاتك، ولا أنـت ذاك، يا من تعلو على الأوهام، وتكثر على الكثير.
>
> ومنك يا نقشًـا كثير الصور، يكون المشـبِّه والموحِّد ومن هو حائر بينهما!"(٨).

والاثنينية هنا ظاهرة لا تحتاج إلى تأويل.

والواقـع أن المتصوفـة يتجولون في ميدان الكثرة أيضًا؛ فبينما يبحث بعـض النـاس في عباراتهم المزينة عن أدلة علـى وحدة الوجود، لا تخلو أقوالهم عما يعبر عن الكثرة مثل "قتل النفس" و"إفناء الأنا"...

لمـاذا يعانـون مثـل هـذه المشـاق فـي التزكيـة مـن النقائـص وبلوغ الكمـالات إذا كانـوا يدّعون الوحـدة وينكرون حقيقـة وجودهم، وميزان هـذه الشـخصيات العظيمة في عبوديتها لله تعالى فيه حساسـية تنفي قطعًا نظرية وحدة الوجود الفلسفية:

إنّ مؤيـد هـذه النظريةِ الذي يعتقد بأنه مكلَّف بتكاليف شـرعية يكون قـد ميّـز أولًا بيـن المأمور والآمـر، فدعوى وحدة الوجـود مـع الاعتراف

(٨) مولانا جلال الدين الرومي: المثنوي، [ترجمة: إبراهيم الدسوقي شتا]، ٢/٢٩-٣٠.

بالتكليف فيها ما فيها من التناقض؛ فلم يجرؤ أحدٌ من المؤمنين قط على إنكار أننا مأمورون بأوامر الله سوى زنادقة أنكروا التكليف أصلًا.

فمفهوم وحدة الوجود عند الصوفيّة ينحو إذًا نحو وحدة الشهود، أو معناه في الحقيقة وحدة الشهود؛ وهذا المفهوم عندهم مردُّه إلى الاستغراق وتغلُّبِ "الحال" عليهم والقصورِ في التعبير عما يجدونه في أفئدتهم؛ أما مفهوم وحدة الوجود لدى المتصوفة فهو تفلسف في هذا الإدراك القلبي والمشاهدةِ المعنوية بل إنه تَبَنٍّ لفكرة فلسفية غربية.

ولا ينبغي لأحد أن يظن أن كبار علماء المسلمين يدافعون عن فكرة "بانتئيزم" رازحين تحت تأثير الأفلاطونية الحديثة (*Neoplatonism*)، بل غاية ما يمكن قوله أن هؤلاء العظام لم يروا بأسًا عند الإفصاح عن مشاهداتهم وإحساساتهم في استعارة بعض الألفاظ والتعبيرات من "نيو بلاتونيزم"، لكن هناك بون شاسع بين الفريقين في مفهوم الذات الإلهية.

فأمثال هؤلاء ممن يوازنون بين الدنيا والعقبى كما جاء في القرآن الكريم لا يمكن أن يعتقدوا بمثل ما يعتقده المتصوفة من وحدة الوجود، والدليل على ذلك ما يأتي:

١- الاعتقاد بأنّ الإله يسري في الكون كله في كل مكان وفي كل شيء يعني أنّ كل شيء إلهٌ ثمينًا كان أم خسيسًا، وهذا ما يرفضه العقل والنقل قطعًا.

٢- يبرهن القرآن بالأشياء أحيانًا على وجود الله ووحدانيته، وهذا دليل على أن حقائق الأشياء ثابتة.

٣- في القرآن الكريم آيات كثيرة تنص على أن كل شيء هالك إلا هو سبحانه، ثم تبشر بالعوالم الجديدة المعقِّبَة لهذا الهلاك؛ فالهلاك فناء شيء موجودٍ، والكلام عن هلاك ما لم يوجد أصلًا عبثٌ لا معنى له، والقرآن منزَّه عن العبث.

٤- الأنبياء والمرسلون كلهم علَّموا أممهم وقرّروا أنّ كل شيء كبيره وصغيره أُوجِدَ وخُلق بعد عدم، وأن علاقته بمن أوجده علاقة مخلوق بخالقه؛ فما يقوله المتصوفة حول وحدة الوجود يكذّب الأنبياء وما أوحي إليهم، وهذا افتراء قبيح وتجاوز شنيع على من هم أصدق الناس حديثًا.

٥- في القرآن الكريم آيات ترغيب وترهيب، تبشِّر المطيعين بالثواب والعاصين بالعقاب، فهذه الآيات لن تكون لها دلالة على شيء وفقًا لمفهوم وحدة الوجود؛ فالقول بوحدة الوجود يستحيل أن تجيب معه عن الأسئلة التالية: "من المطيع؟" و"أين الثواب؟" و"من المجرم؟" و"ما العقاب؟".

٦- لو عُدَّت الأشياء هي هو ﷻ، والحوادث الجارية جريان السيل مَظهرًا من مظاهره فلا معنى لذمّ الشرك والمُشرك والأصنام وعبدة الأصنام؛ فما دام كلّ حادثة مَظهرًا من مظاهره فلا يُتصور أن تكون غيرَه؛ لكن القرآن والسنة أثبتا عقيدة التوحيد، وهما أعظم خصم للشرك وعبادة الأصنام.

٧- مفهوم وحدة الوجود الفلسفي يستلزم قِدم المادة، وهذا كفر بالإجماع، وأولياء الله برآء من ارتكابه.

٨- كلُّ ما أُورد دليلًا على وحدة الوجود، يدل في الحقيقة على الكثرة في الوجود.

obeikandl.com

وبعد كل ما ذكرناه نقول: إن بين مفهوم وحدة الوجود عند الصوفية والذي عند الفلاسفة فروقًا واضحة كثيرة، فهي عند الفلاسفة (بانتئيزم) تبدو في الظاهر شبيهة بما عند الصوفية، لكنها ترى أنَّ الله والعالم شيء واحد، وهذا يحتمل معنيين:

١- الموجود الحقيقي الوحيد هو الله، أما العالم فمجموعة مظاهر أو أشكال وفيوضات، وهذا ما ذهب إليه "سبينوزا (*Spinoza*)".

٢- الموجود الحقيقي الوحيد هو العالم، والله -حاشا لله- هو مجموع الكائنات، وهذا مذهب الوجودية الطبيعية أو الوجودية المادية، وعليه "هيجل (*Hegel*)" وأنصاره.

وعلى ذلك نقول:

يعبر الصوفية عن فنائهم في واجب الوجود بإنكار العالم؛ أما هؤلاء فيحاولون إنكار خالق العالم.

وتستلزم فكرة وحدة الوجود لدى الصوفية "وحدةَ الشهود"؛ أما نظرية الآخرين فتستلزم "وحدة الموجود (*Monism*)".

وقع في كلام الأولين (الصوفية) متشابهات لقصورٍ في التعبير عن أحوالهم ومشاهداتهم واستغراقاتهم؛ أما الآخرون فسلكوا هذا المسلك للتفلسف.

والأولون ينطلقون من اعتقادهم بالله، ثم ينظرون إلى الأشياء والحوادث ويقيّمونها في ضوء هذا؛ أما الآخرون فنظريتهم تجعل الله -حاشا لله- تابعًا للكائنات.

إن ما عند الأولين ذوق روحانيّ؛ وما عند الآخرين نظرية صِرفة.

ومسلك الأولين قائم على التواضع وإنكار الذات؛ أما مذهب الآخرين فقائم على "التشبُّه بواجب الوجود" تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

والله أعلم بالصواب.

obeikandl.com

obeikandl.com

التناسخ ورأي الإسلام به

سؤال: ما معنى تناسخ الأرواح؟ وما موقِفُ الإسلام منه؟

الجواب: التناسخ لغةً من النسخ، واصطلاحًا: انتقال الأرواح من جسد إلى آخر؛ ويطلق عليه الفرنسيون "ميتامبسيكوز" أي التقمص، والقائلون به يرون أن الأجساد أشبهُ بقوالب للأرواح كأنها ثكنة عسكرية، تدخلها الأرواح وتعيش فيها وتَعمُرها، فإذا ما تحللت الأجساد انتقلت الأرواح إلى أجساد أخرى، وتظل كذلك في تداولٍ زمنيٍّ مستمر.

وقد نجد عقيدة التناسخ لدى أكثر المجتمعات البدائية، لكن تظهر في صور شتّى وفقًا لعقيدتهم وثقافتهم المحلية واختلاف بيئتهم؛ فثمة اختلاف بيّن في مفهوم التناسخ بين المصريين القدماء والهندوس المفتونين بالخلود، وله معنى مغاير جذريًّا لدى الفلاسفة اليونانيين في عباراتهم الثرية المزخرفة.

واشتهر التناسخ كثيرًا في عصرنا الذي كثرت فيه التجارب الميتافيزيقية المتنوعة، وغدا اليوم مذهبًا عقائديًّا أساسه انتقال الأرواح، وعظُم الاهتمامُ بهذه النوعية من المسائل، وغدت ردَّ فعل للفشل الذي منيت به المادة لا سيما في المحافل الاجتماعية الراقية، حتى إنّه ما اجتمع نفر في مكان ما إلا دار بينهم حديثٌ عن تأثير ما وراء الطبيعة في الطبيعة وقوانينها، وظهورِ الأرواح وتنبيهِها وتنويرها أو إغوائها وتضليلها.

وأريد أن أنتقل إلى موضوع السؤال مع إشارة إلى منشأ ظاهرة التناسخ؛ إذ لا يتسع الجواب للتفصيل في تاريخ التناسخ أو في حوادث ما وراء الطبيعة وما وراء علم النفس في أيامنا.

obeikandl.com

مـن النـاس من يـرى أن عقيدة التناسـخ قديمـة ولها جـذور عميقة، فأكثـروا مـن نسـج الأسـاطير حولهـا، وعدوا قصـص هيـرودوت حقيقة -وجُلّهـا أسـاطير كاذبـة-، ودعامـة لهـذا الأمـر حاولوا حشـد الأكاذيب الوهميـة فـي الحكايات الشـعبية الـواردة في مؤلفات "أوفيـد (*Ovide*)"؛ وزعـم قـوم أن رحلة الأرواح هذه ليسـت في البشـر فحسـب بل تشـمل الحيوانات والنباتات، قال شـارح كتـاب "جامكيتنوما (*Camgitinüma*)": يـرى القائلـون بتناسـخ الأرواح أنّ رحلة الأرواح تمتـد إلى الموجودات كلهـا؛ فثمـة موكـب مـن الأرواح يتنقل من أبدان البشـر إلـى الحيوانات، فالنبـات، فالجمادات والمعـادن، ومن البر إلى البحر وعكسـه. ويطلقون "النسـخ" على انتقال الروح من جسـم إنسـان إلى آخر، و"المسـخ" على انتقالهـا إلـى جسـد حيوان يناسـبها، و"الرسـخ" على انتقالها إلـى النبات والأشجار، و"الفسخ" على انتقالها إلى الجماد.

هـل تأثـرت هذه العقيدة بمفهوم الروح الكليـة، وما علاقتها بالحلول والاتحاد؟ من الصعوبة بمكان أن ننكر أن هاتين النظريتين المنحرفتين هما منشـأُ التناسـخ، وذكر "تايلور (*Taylor*)" أن لمفهوم التناسخ علاقةً وطيدة ببقـاء الـروح الذاتي، وحاولوا قرونًا طويلةً تفسـير شـبه الأبنـاء والأحفاد بالأجداد بمسألة التناسخ؛ ونحن نفسره اليوم بقانون الوراثة.

قيـل: كانـت بداية ظهـور عقيدة التناسـخ في حوض النيـل، ويمكن استشـعار هـذا إلى حد ما في أوجـه المومياوات البشـعة وفي الأهرامات الحافلـة بالأسـرار؛ وهـذه العقيدة انتقلت مـن مصر إلى الهنـد ومنها إلى اليونان، واتُّخذت أملًا وسـلوى في قلب الإنسـان التوّاق إلى الخلود، بين أقوال الفلاسفة الأخاذة، ونغماتِ أهل "الغانج" و"السِّنْد" المفتونين بفكرة الخلود. وبعضُ "الكابالِيّين" أدخلوا فكرة التناسخ إلى عقائد بعض الأديان السـماوية، وتأثرت بها فرقة من متصوفة الإسـلام رغـم رفض المتكلمين

لهـا جذريًّـا؛ وأتـى كلٌّ بأدلـة على دعـواه، فمثلًا ذكـر الكاباليـون ما جاء في التوراة من أن بطلة الأسـاطير اليونانية "نيوبي (*Niobe*)" غدت رخامًا، وزوجة لوط عليه السلام تمثالًا من غبار؛ والذين جاؤوا من بعدهم ذكروا مسخ طائفة من اليهود قردة، وأخرى خنازير؛ وبلـغ الأمر بأناس أن أحلّوا الروح في كل شـيء فقالوا: سرّ الانسياق الفطري لدى الحيوان والنظام والتناغم لدى النبات هو انتقال أرواح الناس إليهما.

والقـول بمثـل هـذا الحكم الصـادر عن غيـر رويّةٍ في حق الإنسـان لا يمكـن إلا بتكلـف، دع عنـك تعميمـه علـى النبـات والجمـاد، فقليـلٌ من التفكير يرشدك إلى أنه مستحيل.

ولا جـرم أن الجمـادات والنباتات لهـا برنامج معين وقَـدَرٌ يصرفها، أما إسـناد ما فيها من نظام وميزان إلى أرواح ذات تجارب تحُلّها فهو أمر باعثٌ على السخرية، ولا أصل له مطلقًا، والحق أن للنبات والشجر حياة نباتية خاصة، لكنها ليست ألبتة روحًا إنسانيّة تدنَّت أو مهيّأةً للرقي ومرشحة لتبلـغ مسـتوى الإنسـان؛ ورغـم هـذا القدر مـن الأبحـاث والاختبارات لم تقف البشـريةُ على رسـالة من أي نبات تثبت وجود روح إنسانية خبيرة تديـره، ولا علـى أي ذكـرى للحياة النباتية والحيوانيـة في أي روح تعيش مرحلـة الإنسـانية -بزعمهم-، ومِن أكبر أدلّتهـم على عقيدتهم هذه انتقالُ المعلومات والذكريات القديمة؛ بيد أننا لم نسمـع حتى الآن سوى هذيان بضعة مجانين أو جملة من الأخبار المثيرة.

ومـا ورد فـي التوراة عن مسـخ "نيوبي" رخامًـا، و"والهة" زوجة لوط عليه السلام تمثالَ غبار لا دليلَ فيه على التناسـخ ألبتة، هب أنا سـلّمنا بهذا رغم مـا فيه لكنّ معنـاه أنَّ الروح لما قُبضت اصطلى الجسـد بلفح النار، فغدا غبـارًا بمقتضـى نوع البلاء الذي حلَّ بـه، أو أنّه قد تصلَّب مثل الجمادات تحت الحُمَم البركانية.

نعـم، أنـواع الأحافير التي عثر عليها فـي أنحاء العالم كافّة لا تُعَدّ ولا تُحصَـى؛ فمثلًا جَعلـت حمم بركان فيزوف مدينةَ بومبـاي الإيطالية كومة ركام، ثـم كشـفت الحفريات التي أجريت هنـاك بعد عصور عن مجموعة كبيرة من التماثيل الرخامية أمثال "نيوبي"، وعندما ننقب في ركام الأنقاض اليـوم نسـتوحي منها العبرة، ونـدرك أن حياة ملؤها الخـزي والعار كانت وراء طغيان الناس، ونرى آثار غضب الله عليهم.

وهـذه المـادة الإثنوغرافية إنمـا أُودعت في حِجر المسـتقبل المكين لتكون عبرة؛ وتفسـير ذلك بالتناسخ دعوى بلا بيّنة، واستخفاف بالعقول؛ إذا كان التناسـخ انتقالَ أرواح من أجسـاد الموتى إلى أجسـاد أخرى فأية روح انتقلـت؟ وفي أيّ جسـد حلَّتْ؟ نعم، قد قُبضـت أرواحُ قوم أكثرُهم مجرمون ومُسخت أجسادهم حجارةً لتكون عبرة ودرسًا للاحقين.

لقـد تطورت عقيدة التناسـخ في مصر واليونان وحـوض نهر الغانج أمـلًا فـي خلود الروح، وقد اسـتندت على عقيدة أخرويـة وُظِّفت توظيفًا منكـرًا. لـم يكن أحد في مصـر "أخناتون" أو في يونـان "فيثاغورث" يعلمُ شـيئًا عن عقيدة التناسـخ التي أظهرتها التحريفات؛ كان أخناتون يرى أنّ الإنسـان يبدأ حياة سـماوية جديدة بانقضاء حياتـه على الأرض، فلا يكاد يمـوت حتى تعرج روحه إلى المحكمة الكبرى في السـموات العلى، وما تزال ترتفـع حتى تمثل بين يدي "أوزوريس" لتُقِرَّ بما كانت عليه في الدنيا وتحظـى باللحـاق بجماعته؛ وصيغـة الإقرار: "جئتك مبـرَّأً من كل ذنب، وقضيت حياتي فيما يرضي الربانيين، لم أقتل ولم أسـرق ولم أفسـد ولم أسـئ إلى أحـد ولم أرتكب الفاحشـة..."؛ أما الروح التـي تخفق في ذكر هذا فتطيش كِفّتها، فيؤمر بها فتطرح في جهنم، وتمزقها زبانيتها إِرْبًا إِرْبًا.

ونكاد نلمس عقيدةً صافية نقية أيضًا في كتابات جَلَّت الحقائق الإيمانية في ديانة أخناتون، يقول: "ما أكثر نعماءك! والناس عنها غافلون، أيها الإله الأحد، لا قوة تبلغ قوتك، خلقتَ الأرض كما شئت، والبشرَ قاطبةً، والحيوانات كافة صغيرها وكبيرها، ما يمشي منها على الأرض، وما يحلق بجناحيه في جو السماء، وأعطيت كل سائل مسألته، وأبدعت بفضلك كلّ جميل، ومنه تراك كلُّ الأعين، أنت في قلبي يا إله الكون..." (٩).

ما نقلته هنا دون أن أضيف شيئًا عليه كانت مصر تعده حقيقة كبرى تؤمن بها منذ نحو أربعة آلاف سنة.

أما اليونان فكانت عقيدة الإيمان باليوم الآخر وخلود الروح راسخة عندهم، يذكر الفيلسوف الكبير "فيثاغورث" أن للروح بعد أن تفارق الجسد حياة خاصة، حظيت بها قبل الهبوط إلى الأرض، ولما هبطت حُمِّلت تكاليف معلومة، فإن أساءت طُرحت في جهنم ومزقتها زبانيتها إِرْبًا إِرْبًا، وإن أحسنت فلها الدرجات العلى والحياة الطيبة.

نعم، إذا نظرنا إلى هذه النصوص بعد الاعتراف بما شابها من الخلل الممكن رجوعُه إلى رُواتها، وجدنا عقيدة حشر قد بُحِثت بأسلوب لطيف وهي ليست عن الصواب ببعيد.

ولا يختلف عن هذا ما قاله أفلاطون في كتابه "الجمهورية"، فهو يرى أنّ الروح إذا فارقت الجسد أعرضت عن الحياة المادية جذريًّا وشَغَلها التمعُّن في الحقيقة ليس إلا، وهكذا ترقى الروح إلى عالم ملائم لها؛ عالم لاهوتي مفعم بالحكمة والخلود، وتتنزه عن نقائص كانت تقتضيها الطبيعة البشرية كالقصور والخطأ والخوف وحتى عوامل الألم في الحياة المادية من حب وعشق... أي من جميع ما تستلزمه الطبيعة البشرية لتحظى بسعادةٍ بالغةٍ وحياةٍ حميمة بصحبة الربانيين.

(٩) أنظر: جيمس هنري برستد: تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ص. ٢٤٥-٢٤٨.

وبعد كل ما رأينا إن وجدنا ما يشبه التناسخ في عقائد أمم تتبع مثل تلك المناهج الفكرية، فعلينا أن نجزم أنها نَتاج تحريف مُنيت به تلك العقائد.

ولما غدت عقيدة التناسخ المتجذرة في مصر مدارًا للملاحم والأغاني الشعبية في دول حوض النيل كلها من أقصاها إلى أدناها، اكتست تلك العقيدة حُللًا خيالية مزركشة كسَتْها إياها العقولُ الولود لفلاسفة اليونانيين، فنفذت إلى الأساطير، حتى غدت أسطورة الأرض بأسرها.

ومن أخذ بهذا المفهوم من الهنود يَعدّ المادةَ التجليَ الأخيرَ لـ"براهمان"، وحلولَ الروح في الجسد شرًّا وخسّة؛ ويعتبر الموتَ ترفعًا عن النقائص البشرية، ووسيلةً لبلوغ الحقيقة والرقي إلى الوجد والاستغراق؛ وللهندوسية نصوص عظيمة الأهميّة عندهم بعنوان "فيدانتا"، تصور أن الروح الأعظم "أتمان" والإله "براهمان" شيء واحد، وأن الروح تنتقل من قالب إلى آخر، ولن تنجو من الأسى والألم إلا إن عادت إلى أصلها؛ وإنما تبلغ الروح مرادها -وهو المعرفة المقدسة- بالتطهر من الأنانية ومفاسدها والجري نحو المعبود المطلق جريان النهر إلى البحر؛ فإذا تحقق الوصال عمَّت السكينة والسكون مثلما يحصل في "نيرفانا" البوذية، إلا أن في البوذية نوعًا من الفناء والانطفاء والخمول، مقابل ما في البراهمانية من روح فعَّالة إيجابية.

ثم اعتنق بعض اليهود عقيدة التناسخ، ولما دسّ "الكاباليون" هذه العقيدة في أديرةٍ منها حصن الإسكندرية نفثَ غلاةُ الشيعة تلك العقيدة بين المسلمين وإنْ بقدر ضئيل؛ ومما يلفت النظر أنّ الحلول والاتحاد قاسم مشترك بين الأمم القديمة والحديثة المعتقدة في التناسخ؛ وهذا خطأ عام وقعت فيه أقوام سلكت هذا الطريق المنحرف فذهبت المذهب

نفسه، فالأخناتونية في حق أخناتون، والبراهمانية في براهمان، واليهودية في عُزير عليه السلام، والمسيحية في المسيح عليه السلام، وغلاة الشيعة في سيدنا علي رضي الله عنه؛ أما ما في أقوال بعض المتصوفة مما يوهم التناسخ فهو إما مِن درج المغرضين وإمّا من الرموز التي يجب تأويلها...

أما علماء أهل السنة المحدِّثون منهم والفقهاء والمفسرون والمتكلمون فقد أجمعوا على أن عقيدة التناسخ تناقض حقيقة الإسلام، ومن أسباب إنكارهم لها أن المرء يعيش بقدَره، ويموت بقدره، ويحشر بعمله، ويجيب على السؤال بنفسه، ويحاسَب هو لا غيره على سيئاته وحسناته. نعم، يستحيل قبول هذه العقيدة الفاسدة لأمور:

أولا: مقتضى الإيمان باليوم الآخر أن المرء سيحاسب بحسب منعطفات حياته، ففي أي شخص ستُحشر روحٌ حلّت في آلاف الأجساد؟ وبأية حالة ستُثاب وتُعاقب؟.

ثانيًا: الدنيا دار ابتلاء، والابتلاء فيها قائم على أساس الإيمان بالغيب؛ فعقيدة التناسخ تنقض نفسها بنفسها وتقوض نفسها بنفسها؛ إذ إنها تقضي بأنَّ الروح التي اقترفت الآثام في الدنيا تُعاقَب بحلولها في جسد مخلوق وضيع، وإذا سنحت الفرصة للانتقال إلى جسد آخر فستحاول التخلص من تكرار عملية الحلول لِمَا تجرعتْ من معاناة وآلام، فلم يعد في المسألة شيء له صلة بالإيمان بالغيب أصلًا...

ثالثًا: لو قُضيَ بأن تنتقل الأرواح بين الأجساد مِن هذا إلى ذاك ومنه إلى آخر لينعم كل فرد بالسعادة المطلقة، لترتَّب على ذلك نسبة العبث -حاشا لله- إلى وعد الله ووعيده، بالثواب للصالحين وبالعقاب للظالمين، وهذا باطل ومحال في حق الذات الإلهية...

رابعًا: في القرآن الكريم والكتب السماوية أن غفران الذنوب ممكن، وهذا شأن من وسعت رحمته كل شيء؛ وهذا يعني أن الرحلة الطويلة التي تقطعها الأرواح في ألم ومعاناة طلبًا للعفو والغفران والتطهر من الذنوب لا جدوى منها ولا طائل.

ويبدو أن بوذا رأى "نيرفانا" ذات الفناء والانطفاء أكثرَ أمانًا من تلك الرحلة الشاقة، ودعا من غلب عليه الهمّ من البراهمانية إلى هذا الأفق ذي السكينة والطمأنينة.

أما نحن المسلمين فنعتقد أن الله يغفر الذنوب جميعًا، فالله سبحانه وتعالى يتوب على من تاب، ولا عبرة بكثرة الذنوب وقلتها، ولا للإصرار على الذنب وإن دنا الأجل؛ فَرُبَّ عاصٍ قضى عمره كله في أوحال المعاصي والذنوب تصيبه رحمةُ الله تعالى بساعةٍ قضاها في طاعته سبحانه...

خامسًا: التناسخُ وتلك الرحلةُ الطويلة الشاقة التي تقطعها الروح طلبًا للرقيّ في تداول زمني مستمرٍ أمرٌ يناقض رحمة الله تعالى وإرادته؛ فهو ﷻ لو شاء أن يجعل الأشياء الحقيرة المستقذرة ذهبًا خالصًا وأثمنَ الأشياء لَفعل من ساعته، وهذا من عظيم فضله وإحسانه...

سادسًا: من أتباع الرسل مَن ارتكبوا المعاصي والآثام قبل إسلامهم، وبعد ماضٍ مظلم طويل بلغوا رتبة عالية وبَذُّوا الأولياءَ، وهذه حقيقة قائمة جليَّة؛ نعم، إن الرقي إلى قمة الكمال دفعة واحدة دليلٌ على عظيم فضل الله، وإشارةٌ إلى أن انتقال الأرواح بين الأبدان طلبًا للرقي كلام لا محل له من الإعراب...

سابعًا: التسليم بأن لكل جسد روحًا خاصة من مقتضيات الإيمان بقدرة الله المطلقة على الخلق، أما القول بانتقال طائفة محدودة

مـن الأرواح وإدخالهـا فـي الأجسـاد وإخراجهـا منهـا فإنه إسـناد العجز إلى من هو على كلّ شيء قدير، فعقيدة التناسخ باطلة عقلًا...

ثامنًـا: أليـس ضروريًّا وجود أمارات لدى بضعة ملايين من بين بضعة مليارات نسمة يعيشون على وجه الأرض على الأقل لتبرهن على التجارب الحياتية التي خاضتها أجسـاد انتقلت منها الأرواح؟ فإن لم توجد أمارات فـلا أقلَّ من أن يشـكِّلَ ذهابُ الروح ومجيئها إلى الدنيـا مرارًا ثقافةً عامة متراكمة لدى بعض الناس؟ ولو حدث هذا ولو بنسبة ١/١٠٠٠ من سكان العالم، لَلَقِينا منهم واحدًا أو أكثر أينما ذهبنا، لكن أين هم؟!

تاسعًا: وكان لا بد أن يظهر في مختلف شرائح المجتمـع أطفالٌ ذوو مكتسـبات قديمـة ورثوها مـن أرواح قديمة انتقلت إليهـم؛ هل لأحد إلى هذا اليوم أن يذكر واقعة واحدة ثابتة في هذا الأمر؟ فإن شـوهدت أحوال خارقـة مـن بعض الدهاة والملهمين فلا يعدو هذا أن يكون مددًا سـماويًّا أو قـوة حافظـة للأمور مـن نبيٍ فطِن، وليس هذا من المكتسـبات الناجمة عن تناسخ الأرواح في شيء؛ ولا دليل حتى اليوم على وقوع حادثة تثبت أن جسـدًا يعيش بروح شـخص آخر، اللهم إلا خبرًا مثيرًا أو اثنين تناقلته بعض الصحف ومثله هذيان بعض المجانين...

عاشـرًا: لـم تظهر أيـة أمارة حتـى اليوم تثبـت وجود طبائـع إنسـانية في كائنات حية أخرى؛ ولو سلمنا بوجود روح تحمل خصائص اكتسبتها من أجساد دخلتها من قبل، فإنها مهما بلغت خسّةُ حياتها فلا بدّ أن يكون لهـا انفعالات تكاد تتجاوز حدود طبيعتها؛ ورغم تقدم الدراسـات النباتية إلا أننا لم نجد في النباتات أية أمارة على التناسخ...

وقصـارى القـول أن منشـأ عقيـدة التناسـخ انحـراف عقائـدي لدى الأمـم السـابقة، وأما الإنسـان اليوم فلا أصل للتناسـخ عنـده إلا في مكر

الأرواح الخبيثة وتلبس الشياطين ببعض الأجساد وتحكّمها بها؛ ويدلُّنا قول الصادق المصدوق ﷺ: "**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ**"(١٠)، أن الشيطان له سلطان على العقل والقلب، ويُظهر لنا الحديثُ شيئًا من الوجه الحقيقي لذلك الهذيان الذي يُسمَّى التناسخ.

ولا يُعقَل أن يعتقد الإنسان -الذي خلقه الله في أحسن تقويم- بخرافة لا تقوم على تجربة ولا عقل ولا نقل...

والله أعلم بالصواب.

(١٠) صحيح البخاري، الاعتكاف، ١١؛ صحيح مسلم، السلام، ٢٣.

obeikandl.com

الصلاة في القطبين

سؤال: الصلوات الخمس فرض، لكن الليل في القطبين يستغرق ستة أشهر والنهار ستة أشهر أخرى، فكيف تُؤدّى الصلاة في تلك المناطق؟

الجواب: لا نعلم نية السائل؛ فهذا السؤال يطرحه غالبًا الملاحدة الذين ينكرون أن الإسلام دين عالمي، أرادوا أن يقولوا: أنتم تسلّمون بأن الإسلام دين عالمي، لكن يا ترى هل يمكن أن تؤدى أركان هذا الدين بما فيها من صلاة وصيام في مناطق يستغرق الليل فيها ستة أشهر والنهار ستة أشهر أخرى؟

أنوه بداية إلى أن الأنظمة كلها عاجزة أن تبلغ ما بلغته عالمية الإسلام؛ فهناك أنظمة الآن تتخللها آلاف العيوب والأعطاب يستحيي الإنسان أن يسمّيها نظامًا، بل منها ما خضع للتعديل والتنقيح مرارًا ومؤسّسه ما زال على قيد الحياة، فمثلًا نظام ماركس الاقتصادي رغم ما أجراه عليه "أنجلس" من تعديل وتنقيح فإنها تعديلات خضعت هي الأخرى أحيانًا للتعديل والتنقيح، وأُلبست في كلّ مرة زِيًّا جديدًا.

واللافت أن شتى أنواع الأنظمة خضعت لهذا الأمر في الأزمنة كافة، بما في ذلك الأنظمة الاقتصادية اليوم؛ وهذا مردُّه إلى نقصٍ بشريّ.

وأضيف أنني لا أقصد بمثل هذه المقارنة العدولَ عن المسألة أو الاستخفاف بها، ولكن الديالكتية الجدلية هي مذهب البعض ومشربه، فنتنزل أحيانًا إلى مستواهم ونسلك معهم أسلوب الأطفال.

obeikandl.com

ثانيًا: يا ترى كم نسبة من يعيش في تلك المناطق إلى سكان العالم حتى نعرّض دينًا عالَميًّا للنقد من أجل أحوالٍ خاصة عارضة؟ أجل، كم نسبة من يعيش في بلاد الظلمة والجليد إلى عدد الإنسانية؟ ربما لا يصل إلى ١/١,٠٠٠,٠٠٠؛ فإغفال البشرية قاطبة في أنحاء الكرة الأرضية كلها، واتخاذ حالة بضعة أشخاص مناطًا للأحكام الشرعية ومثارًا للشبهات والظنون أمرٌ يخلو مِن الإخلاص والعلم.

ثالثًا: يا ترى هل هناك مسلمون يعيشون في القطبين حتى تشغلنا مسألة صلاتهم ونسأل عن كيفيتها؛ فلو حدث أنِ استوطن مسلمون يومًا في القطبين، وسأل سائل عن العبادات والشعائر صار للسؤال معنًى ومغزًى، وإلا فمثل هذه الأسئلة محاولة لإثارة الشبه والشكوك في قلوب الأبرياء، وما إن يجري الحديث مع الماديين حتَّى يشرع اللسان في جدالهم رغمَ أنَّ القلب لا يستهوي ذلك، فمعذرة!

ولنعرض باختصار لما جاء به الإسلام في هذه المسألة: لا ريب أنَّ الإسلام الذي لم يدع شاردة ولا واردة إلا أحصاها لم يغفل هذه المسألة، وأماط اللثام عنها منذ بداية عصر النبوة في معرض حادثة تتصل بهذا الأمر؛ روى مسلم في صحيحه وأحمد بن حنبل في مسنده أن النبي ﷺ ذكر الدجال وقال: "**إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا**" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: "**أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ**" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: "**لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ**"(١١). نستنتج من ذلك أن الأشهر والأسابيع التي كلها ليل أو نهار تقسم إلى أيام من أربع وعشرين ساعة، وتقدر العبادة فيها بقدرها.

(١١) صحيح مسلم، الفتن، ١١٠؛ المسند لأحمد بن حنبل، ١٧٣/٢٩.

ولما جاء الفقهاء بينوا هذه المسألة في باب مواقيت الصلاة، فغدت معلومة للجميع بما لا يدع مجالًا لأي لبس فيها؛ وسنتطرق إلى ما يخصّ موضوعنا من باب المواقيت:

الأوقات هي أسباب للصلوات، فإنْ عُدم الوقت فلا صلاة، فمثلًا إنْ عدمنا وقت صلاة العشاء في مكان ما لم تجب، وهذا يسري في المناطق التي يخلو اليومُ فيها مِن وقتٍ من أوقات الصلوات؛ أما حينما يستغرق الليل أو النهار جزءًا كبيرًا من السنة كما في حديث الدجال فعلينا أن نقسم هذا اليوم الطويل أو تلك الليلة الطويلة بقدر أيامنا ولياليا المعتادة، ونقدر أوقات العبادة فيها بقدرها ونؤدي صلاتنا، أي نستخدم توقيت أقرب مكان للمنطقة، ونقسم الليل والنهار إلى أجزاء معلومة، ونؤدي عبادات الليل فيما نعتبره ليلًا وعبادات النهار فيما نعتبره نهارًا كما نحدد بشكل طبيعي فطري أوقاتًا معينة للطعام والشراب والنوم. أجل، فكما نخضع لقوانين الفطرة في المناطق التي لا تشرق عليها الشمس أو تغرب عنها شهورًا، فعلينا كذلك أن نحافظ هكذا على أداء عباداتنا من صلاة وصيام بما يناغم الحياة التي نعيشها.

إذًا لم يغفل الإسلام هذه المسألة قطعًا كما لم يغفل سائر المسائل، فأوجب العودة لتوقيت أقرب مكان للقطبين تتبين فيه أوقات الصلوات الخمس.

أخيرًا أقول: وإن كانت الأوقات من أسباب وجوب الصلاة إلا أن السبب الحقيقي للصلاة هو أمر الله؛ فالأحوط في الأماكن التي ينعدم فيها وقت صلاة قضاءُ هذه الصلاة في وقت آخر.

والله أعلم بالصواب.

obeikandl.com

زواج أبناء آدم عليه السلام

سؤال: لِم حُرِّم زواجُ الأخ بأخته وقد كان حلالًا لأولاد آدم وحواء عليهما السلام؟

الجواب: نشاهد اليوم -مع الأسف- بعضَ البؤر تثير مثل هذه الأسئلة وتُشِيعها بين الشباب بشكل منظم؛ وهؤلاء يتعذر تصديق دعوى حسن النية لديهم؛ وشيء من النظر يكشف ما يستهدفونه بإثارة هذه الأسئلة؛ فلعل من أهمّ أهدافهم بل ربما أولها إيهام التناقض في مبادئ الدين.

وفي خبايا هذه الأسئلة دعايات وشعارات هدامة لبعض أنظمة النفاق، منها مثلًا -حاشا لله-: "لا إله والحياة مادّة، الدين أفيون الشعوب، المقدسات الدينيّة تابوهاتٌ وأدوات استغلال بيد الإمبريالية؛ حدود الحلال والحرام بين أفراد العائلة نقيض ما أثبتته الحقائق العالمية... إلخ". ولما انكشف المستور وراء هذه الدعايات والشعارات الخبيثة برزت جملة من القضايا المفزعة، منها: " لقد وصل الدين إلى يومنا هذا وهو يحمل تناقضات كثيرة، وها هو اليوم يفقد مرجعيته بعد انتصار العقل والمنطق عليه؛ فلا يترددن أحد في فعل ما يهوى ويشتهي ولو أن ينكح محارمه".

تلك هي الخطط القذِرة والأهداف الخبيثة الخفية في خبايا أسئلة تبدو بريئة، ويا له من خِداعٍ وتضليلٍ للسذّج من وراء ستار الوضعية والعقلانية!

أجل، هناك في المجتمع من يستهدف تقويض أركان الدين ومقاصدِه في حفظ الدين والنسل، فيثير أسئلة كهذه؛ ونظرة فاحصة لتربتها التي نبتت فيها تبين أنها من جنس فكرهم المعوج؛ والقاعدة أن الحق

هو نقيض ما يزعمون ويدّعون، إذًا فما نحن عليه هو الحق، هذا الجواب يكفيهم لكننا نريد أن نقول بضع كلمات حول هذا الموضوع:

١- هذه المسألة مسألة دينية أولًا، ومن مسائل الدين الفرعية ثانيًا، والذين لا يؤمنون بالدين وينكرون مبادءه ليس لهم قول شيء في مثل هذه الأمور ألبتة.

٢- لا ريب أن الدين بأوامره ونواهيه مُلزِم لمن يؤمن به؛ فإذا صدر عمّن يجحده ما تهواه نفسُه فليس للمؤمنين أن يتعرضوا له؛ فضلال العمل والسلوك ثمرة لانحراف الفكر والتصور؛ ومن العبث محاولة تقويم ذاك قبل هذا.

٣- هذه المسألة مِن فروع الدِّين لا من أصوله، ومثل هذه المسائل يعتريها تطوُّر مستمرّ يوائِم التكامل البشريّ؛ وما كُلِّفنا به من أمر ونهي أيًّا كانت حكمته مثل ما كُلّف به مَن قبلنا، فالمهم في هذا الخصوص امتثال أمر الآمر؛ نراه أمس ينهى عن نكاح التوأم بعضهما، واليوم يأتي بنهيٍ جديد مناسب لطبيعة العلاقة بين الأب والأم ويقضي بتحريم كذا وكذا؛ ومثل هذا كمثل سَنِّ قوانين لمراحل نمو الطفل في المأكل والمشرب والملبس، بل حتى التحدث بلسانه ومستواه؛ ومثل هذا رُوعي في الحياة الإنسانية المتطورة على الدوام؛ ولا تُعدّ سياسة أمور الطفل وعقليتُه وفهمه عيبًا ولا أمارة جهل، بل أمارة رقي وعلم، وكذا سَنّ قوانين حسب درجة تطور الإنسانية في مراحل تاريخها؛ إذ لا يُنكَر تغيُّرُ الأحكام بتغير الأزمان.

٤- ما ورد في السؤال قد يكون من الإسرائيليات؛ إذ ليس في المصادر المعتمدة ما يُثبت صحته؛ لكننا نضطر لتصديق هذا إذا ما وصلْنَا بسلسلة الخلق إلى آدم وحواء ﷺ كما ورد في القرآن؛ فإن سلّمنا بهذه المسألة كما هي دون تحرٍّ لأصلها ففي الإباحة المؤقتة

ثم النسخ دلالة على وجوب رعاية المصالح، أي إن الأحكام قد تتغير بتغير الأزمان والأوضاع.

٥- هذه المعاملة التي أُبيحت مؤقتة تتميز بحال مخاطبيها، إذ إن عائلة آدم عليه السلام ليست كغيرها ألبتة، لِمَ لا وأنوار الوحي الإلهي لم تنقطع عنها، فظل ضميرها يقِظًا دائمًا.

إن والدَي هذه العائلة يتميزان بطراوة ونضارة الإنسان الأول على وجه الأرض، وكان قلبُهما وجِلًا على الدوام لعلمهما أن الزلة الصغيرة قد يكون عقابها شديدًا، وكان قلبُهما منكسرًا لخروجهما من الجنة بسبب الزلة التي وقعت منهما... بيتٌ يحظى بأبوين مثل هذين يلازمه الورع والحيطة حتى في الأمور المباحة، وفي مثل هذه العائلة يعيش المرشحون للزواج دون أن ينظر بعضهم إلى بعض نظرةً خبيثة، بل ينتظرون الأمر بالزواج انتظار الصائم للفطر؛ فقد كان الوحي ينزل على هذا البيت كالصاعقة لتقويم ما قد يقع مِن زيغٍ في القلوب، فلو زالت الحدود كلها فلا أحد يتعدّى أسوار حِمًى يأبى ضميرُه أن يتعدَّاها.

أما البيوت اليوم فلا أثر فيها لشيء من هذه المعاني، أي يتعذر أن تظن بها الوقوف عند هذه الحدود، أو رعاية هذه الأمور، ويحتمل وقوع ما لا يليق في الأعمار الصغيرة؛ وهذا ما يجلب العار لأفراد الأسرة طول العمر؛ ويختل أمن هذه البيوت وتفقد الطمأنينة حتى إنها لَتستحيل سُكًّا للعقارب وجحورًا للثعابين.

وهل يمكن أن يُظَلّل الأمن والاطمئنان بيتًا فيه من يميل بشهوة إلى إحدى محارمه؟ إنَّ بيتًا كهذا يغدو حلبة سباق ليفوز كلّ امرئ بمن يشتهي، بل إنه ليسابق أشقّاءَه في ذلك! وربما بلغ الأمر أن تُرتَكب جرائم كما وقع لابني آدم عليه السلام ثم فوضى واضطراب مستمر.

إذًا فالزواجر وعوامل يقظة الضمير ورقابته ضرورية؛ وبانعدام هذه العوامل واضمحلال بيئة التقوى تُفتح الأبواب على مصراعيها لكل أنواع الشر وخبيث الفِعال.

لا أودّ أن أتحدث عما شهِدتُ أو سمعت لئلا أصوِّر الباطل؛ فحوادث المحارم الناجمة عن خطأ وإهمال يسير تجعل المرء يخجل من كونه إنسانًا، وإذا ما سمع عنها تتملّكه قُشَعْرِيرة تسري في بدنه وشعورٌ بالوجل.

وقبل الختام أود الإشارة إلى نقطة معينة، وهي أنّ عائلة تهتز جدران مسكنها بقول الله تعالى: ﴿**اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٣٦/٢) فتغمرها الخشية والإجلال، ليست كغيرها من عوائل اليوم، فمن الطبعي أن أحكامها -وإنْ كانت مؤقتةً- تختلف عن أحكام العوائل الأخرى، فضلًا عن أنه تتعذر معرفة عدد وقوع ذلك النوع من الزواج، فلا ندري ربما وقع مرة أو مرتين.

٦- من حِكَم الزواج بغير المحارم ضمان توزيع الثروة وتداولها لكي لا تكون دُوْلة بين أفراد العوائل، ولكن الناس يومئذ هم أولاد آدم عليه السلام فحسب، وكانت الدنيا كلها مسخَّرة لهم، فلا سبيل إلى القول بتراكم الثروة أو احتكارها وتمركزها؛ أما اليوم فقد اختلفت البنية الاجتماعية كثيرًا بما جدّ من أواصر؛ لكن هذا ليس علة الأحكام المتعلقة بأمر الزواج، حتى لو وجدت طرائق أخرى لتوزيع الثروة فلن تختلف هذه الأحكام، والقول فيها للعليم الحكيم ﷻ.

سؤال آخر يمكن تبادره إلى بعض الأذهان: ألم يكن من الممكن أن يَشرع الله شرعًا آخر غير الزواج بين الإخوة؟

سؤال كهذا فيه سوء أدب وجهلٌ بالله تعالى؛ وبعد أن خلق الله تعالى آدم وحواء عليهما السلام ما أهون أن يخلق مثلهما، فهو تعالى خالق آلاف

بـل مئـات الآلاف من العوالم، ولكنه لم يفعـل لأن حكمته قضت بذلك؛ ثم إنه تعالى لا شـيء يدعوه ليخلق حسـب موازيننـا القاصرة المحدودة، بـل إننـا مـا اسـتطعنا أن ندرك ميـزان الحسـن والقبح في الكـون إلا بعد إمراره من منشـور أوامره ونواهيه؛ ولا يمكننا أن نفسّر الأشياء والحوادث تفسيرًا صحيحًا إلا بعد اتخاذ أوامره ونواهيه ميزانًا، ولن نصيب فيما نضع من مبادئ إلا بعد أن نعدّ كل أمر من أوامره قانونًا.

ولما جعل الله تعالى آدم وحواء ﷺ أصلًا للسُـلالةِ الإنسـانيَّة، أيقنَّا أنَّ هـذا هو الأحسـن والأحكـم، وكلُّ ما بين بني آدم مـن أواصر يرتبط بهذا الأصل.

كما أن الشجرة كلما اقتربتَ من جذرها وبذرتها تجلت لك وحدتها، كذلك الإنسان، ففي جذر مادّته أو جسده بذرة وحدة الروح، ولو تقدَّمْتَ مرحلـة لظهـر لكَ أنَّ الذرية الإنسـانية كلها مخبوءة فـي جذر "آدم" عليه السلام؛ وتمثـل الشـجرة في هذه المرحلة الذكورةَ والأنوثة معًـا؛ فهي التي تُلقِّح، وهـي التـي تُلقَّـح؛ وعندمـا تباعـدت هذه عن تلـك، برز الاختـلاف بين الذكورة والأنوثة، فتغير شكل التلقيح أيضًا.

إننـا نشـعر بعلاقة بيننا وبين البشـرية جمعاء، ومرجـع هذا هو وحدة آدم وحـواء ﷺ وإنسـانيتُنا والمحبـةُ التـي وضعهـا الله تعالـى فـي قلوبنا؛ أما نسخ أحكام كانَت في شرع مَنْ قبلَنا فأمرُهُ إلى حِكمة التشريع الربانيّ الذي نسـلم به، وأيضًا إلى بُعدنا عن الجذر الذي فيه سـرّ ذاك التشـريـع، وكذلـك الفروق الفردية الخاصة بالماهية الإنسـانية التي تُمنَح لكل امرئ في السلالة البشرية ذكرًا كان أم أنثى.

فسبحان من هو في كل أمره حكيم.